خطبة صلاة الجمعة 23/ 1/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(فضيلة... أخلاق تعاملية)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَبُ).

قال تعالى في وصف نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4].

قَالَتْ السيدة عائشة رضي الله عنها: (مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ: لَبَّيْكَ).

وقال صلى الله عليه وسلم: «**مَا مِنْ شَيءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيبلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِب الصَّوم وَالصَّلاةِ**» [الترمذي].

أيها الإخوة:

نبدأ اليوم مستعينين بالله تعالى سلسلة خُطب جديدة عنوانها (**فضيلة... أخلاق تعاملية**)

وعنوان خطبة اليوم: **لماذا هذه السلسلة؟**

الخُلق: هو السجية والطبع. وعرَّفه الإمام الغزالي بأنه: (هيئةٌ في النفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر، من غير حاجة إلى فكر ورويّة).

يطبع اللهُ تعالى أناساً على بعض الأخلاق النبيلة، بينما يحتاج آخرون إلى التدرب عليها والتطبع بها حتى تصبح طبعاً لهم وخلقاً.

بينما يطبع آخرين على خلال حميدة أخرى، فيحتاج الأولون إلى التدرب عليها لتصير لهم طبعاً وخلقاً. فيتساوى العباد في التشريف والتكليف.

فبإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانِكِ التطبع بالخصال الكريمة لتلتزمها.

هذه السلسة (**فضيلة...أخلاق تعاملية**) جاءت لأربعة أسباب:

أولها- لأن الله تعالى يحبُّ مكارمَ الأخلاق ورسولُه:

فمهما ازددت خلقاً ازددت من الله حباً، ومن نبيه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة قرباً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:195]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:42]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**أحبّ عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً**» [الحاكم].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإنَّ أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون**»، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال:« **المتكبرون**» [الترمذي].

وقعت سفانة بنت حاتم الطائي أسيرة بيد المسلمين، فلما رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم قامت فقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ! إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُخَلِّيَ عَنَّا وَلَا تُشْمِتْ بِي أَحْيَاءَ الْعَرَبِ فَإِنِّي ابْنَةُ سَيِّدِ قَوْمِي، وَإِنَّ أَبِي كَانَ يَحْمِي الذِّمَارَ، وَيَفُكُّ الْعَانِي، وَيُشْبِعُ الْجَائِعَ، وَيَكْسُو الْعَارِي، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَيُفْشِي السَّلَامَ، وَلَا يَرُدُّ طَالِبَ حَاجَةٍ قَطُّ، أَنَا ابْنَةُ حَاتِمٍ طيّء، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا جَارِيَةُ! هَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا لَوْ كَانَ أَبُوكِ مُسْلِمًا لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ، خَلُّوا عَنْهَا فَإِنَّ أَبَاهَا كَانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَاللهُ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**»، فَقَامَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ دينار، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ إِلَّا بِحُسْنِ الخلق**» [دلائل النبوة للبيهقي].

فقالت: يا رسول الله أتأذن لي أن أدعو لك بدعوات؟ فأذن لها، وقال لأصحابه: «**أنصتوا وعوا**»، فقالت: (شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سُلبت نعمة عن كريم إلّا وجعلت سبباً لردّها، وحسبك هذا في اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف).

فهذه السلسلة لأن الله تعالى يحب مكارم الأخلاق ورسوله.

ثانيها- لأنَّ الإسلام عقيدة، وشريعة، وأخلاق. ولا يكتمل إسلام المسلم حتى يصحِّحَ عقيدته، ويلتزمَ شريعة ربه، ويقوِّمَ أخلاقه.

ورُبَّ مُسلمٍ حَسُنت عباداته، وساءت أخلاقه ومعاملاته، فازداد من الله بُعداً، ورُبَّ مُسلمٍ اعتدلت عباداته وعَلَت معاملاته، فأدرك رفيع الدرجات في الدارين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إنَّ المؤمن ليُدرِك بحُسنِ خُلُقِه درجة الصائم القائم»** [أخرجه أبو داود]، وعند الطبراني، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إنَّ العبد ليبلغُ بحُسن خُلُقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم»**.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«أتدرون ما المفلس؟»** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: **«إن المفلس مِن أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار»** [مسلم والترمذي].

عن أم الدرداء قالت: (قام أبو الدرداء ليلة يصلي، فجعل يبكي ويقول: اللهم أحسنت خَلقي فحسِّن خُلقي، حتى أصبح، فقلت: يا أبا الدرداء، ما كان دعاؤك منذ الليلة إلا في حسن الخلق؟! فقال: يا أم الدرداء، إنَّ العبد المسلم يحسِّن خلقَه حتى يدخله حُسْنُ خلقه الجنة، ويسيء خلقَه حتى يدخله سوء خلقه النار، والعبد المسلم يغفر له وهو نائم، فقلت: يا أبا الدرداء، كيف يغفر له وهو نائم؟! قال: يقوم أخوه من الليل فيتهجد فيدعو الله عز وجل فيستجيب له ويدعو لأخيه فيستجيب له فيه) [البخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في الشعب].

فلا يكتمل إسلام المسلم حتى يستكمل الأخلاق الحميدة ويتخلى عن الذميمة.

ثالثها- لأن المجتمعات في الأوقات كافة، وفي الأزمات خاصة أحوج ما تكون إلى أخلاق تعاملية حَسَنة.

ففي الأزمات يتاح للصالح أن يزيد صلاحَه، وللفاجر أن يزيد فجورَه. للخيّر أن يزداد في فعل الخير، وللشرير أن يزداد في فعل الشر. وتظهر الحاجة الكبرى للأخلاق التي يغرسها الإيمان، إذ الناس لايردعهم إلا سلطان أو إيمان، فإذا نزلت الأزمة كانت الحاجة الماسة إلى الإيمان.

بتاريخ 7-11-2014 أنهينا كما تعلمون سلسلة خطب عنوانها (أخطاء شائعة)، ويوم الختم طلبت إليكم مقترحات لسلسلة جديدة من الخطب، من ذلك اليوم وحتى الأمس وأنا أتلقى من الإخوة

الكرام والأخوات مقترحات، جاءني منكم مشكورين مشافهةً ومكاتبةً ومراسلةً قريب من خمسون وثلاثمائة اقتراحاً، حاولت أن أجمعها في زمر: للمقترحات الخاصة بالعلاقات الأسرية زمرة، وللأسواق التجارية زمرة، ولقضايا الشباب زمرة، وللأزمة زمرة، ولمواضيع متفرقة زمرة.

وجدت أن أكثر المقترحات في هذه الزمر الخمس تطالبني بالحديث عن الأخلاق المحمودة وتعزيزها والأخلاق المذمومة والتخلص منها.

وهذا يدل على حاجة المجتمعات عامة إلى الأخلاق، وحاجتنا نحن خاصة إليها في هذه الأزمة التي نرجو الله تعالى تعجيل كشفها عنها.

فأن تزداد في الأزمة التي نعيش الخلافات الزوجية – وهذا أمر له أدلته من أرقام المراجعات والشكاوى في المحاكم الشرعية- هذا دليل على حاجتنا إلى تعزيز الأخلاق بيننا.

وأن تزداد في الأزمة التي نعيش التبرعات الواردة إلى الجمعيات الخيرية – وهذا أمر له أدلته من الميزانيات الختامية للجمعيات في الأعوام الأربعة الماضية مقارنة مع السنوات قبل الأزمة – هذا دليل على أن الإيمان والأخلاق موجودان في القلوب وساحة العمل ونحن بحاجة للتمسك بهما.

أن يزداد جشع بعض العاملين في السوق التجاري فيزدادون في الأزمة ثراءً فاحشاً على حساب المتضررين – وهذا أمر له أدلته في غرف التجارة والصناعة – هذا دليل على حاجتنا إلى تعزيز الأخلاق.

وأن يزداد التكافل بين صاحب المعمل وعماله، وصاحب المتجر وزبائنه، وصاحب الشركة وموظفيه، هذا دليل على وجود الأخلاق في قلوبنا ومعاملاتنا، ونحن بحاجة إلى تثبيتها ونشرها وتعزيزها.

ومن هنا قامت وزارة الأوقاف مشكورةً بإطلاق (مشروع فضيلة) لتعزيز الأخلاق الحميدة والتخلي عن الذميمة بالكلمة الطيبة.

فنحن بحاجة إلى الأخلاق الحسَنة في بيوتنا، في محلاتنا، في أسواقنا، في دوائرنا الحكومية، في كل مجال ندخل فيه، ولأجل ذلك جاءت هذه السلسلة.

رابعها والأخير- لأنني كما تعلمون أحمل مشروعين أعمل لهما خمس عشرة سنة- مضت منها خمس-لإدخال الدين في علاقاتنا الأسرية، وإدخاله في معاملاتنا المالية.

فنحن قوم ترانا مقبولين بشكل عام في عباداتنا الشعائرية، وهذا مطلوب ديانة لكننا بحاجة إلى أن نجتهد بالتزام عباداتنا التعاملية أكثر وهذا مطلوب ديانة أيضاً.

ألا تعجبون من مُصَلٍّ يحافظ على الصلوات في الأوقات الصحيحة، ولكنه لايحافظ على ردِّ الديون التي عليه في الأوقات الصحيحة.

ألا تعجبون من فتاة حفظت القرآن ولكنها لم تحفظ زوجها وأولادها، وفرَّطت بهم طالبةً الطلاق لأول هزة تعرضت لها أسرتها.

ألا تعجبون من شاب يراعي حضور مجالس العلم ولا يراعي خدمة أبيه إذا طلبه وأمه إذا دعته.

ألا تعجبون ممن يحرص على ألا يأكل تمرة من دكان عام ليشتري إن أعجبته، وتراه آكلاً الملايين من ميراث أبيه لأخواته البنات أو الشباب.

لكل ما مضى أنا أعمل -وعدد لابأس منكم يساعدني مشكوراً- لإدخال الدِّين إلى علاقاتنا الأسرية والمالية. ولذلك اخترت أن تكون السلسلة (**فضيلة...أخلاق تعاملية**)

أيها الإخوة:

لهذه الأسباب الأربعة جاءت هذه السلسلة من الخطب:

أولها- لأن الله تعالى يحب مكارم الأخلاق ورسولُه.

ثانيها- لأن الإسلام عقيدة، وشريعة، وأخلاق. ولا يكتمل إسلام المسلم حتى يقوِّم أخلاقه.

ثالثها- لأن المجتمعات في الأوقات كافة وفي الأزمات خاصة أحوج ما تكون إلى خُلُق حَسَن.

رابعها والأخير- لأنني كما تعلمون أحمل مشروعين أعمل لهما خمس عشرة سنة مضت منها خمس، لإدخال الدِّين في علاقاتنا الأسرية وإدخاله في معاملاتنا المالية.

ختاماً:

قالوا: (من ساء خلُقه عذَّب نفسه)، وقالوا: (من سعادة ابن آدم حُسن خلقه، ومن شقوته سوء خلقه).

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**ما شيء أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ البذي**» [الترمذي].

والحمد لله رب العالمين